حضارة القاهرة

من خلال

شعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي

[٣٣٧ هـ - ٣٧٥ هـ]

دكتور

زياد محمد عبد المالك جبالي (*)

شعر تميم بن المعز:

لقد خلّف لنا الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ديوان شعر، قام بتحقيقه لدار الكتب المصرية الأستاذ محمد حسن الأعظمي - من علماء باكستان - بعد أن قابله على النسخ التي تحصل عليها؛ وقد وافقت الدار على طبعه باعتباره شاعراً مصرياً، صور شعره لوناً من ألوان الحياة في مصر في العصر الفاطمي، ورأت الدار أن الديوان في حاجة إلى مزيد من التحقيق والمراجعة قبل النشر، فأسندت هذا الأمر إلى عالمين جليلين هما الأستاذ أحمد يوسف نجاتي والأستاذ محمد علي النجار، وشاركهما في هذا الأمر الدكتور محمد كامل حسين الذي كان بحوزته بعض النسخ من هذا الديوان.

وقد قاموا جميعاً بهذا العبء؛ وتولوا إخراج الديوان إخراجاً علمياً محققاً، وأثبتوا فروق نسخ الأستاذ الأعظمي التي أشار إليها، فضلاً عن فروق النسخ التي بين أيديهم، وبذلوا أوسع الجهد في الشرح والتعليق، كما قدموا للديوان دراسة وافية عن تميم وحياته وعصره، وقيمة شعره من الوجهتين الأدبية والتاريخية.[1]

(*) مدرس الأدب بقسم التدريس بكلية الآداب بسوهاج جامعة جنوب الوادي .

(1) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي تحقيق // أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ط ١ القاهرة . دار الكتب المصرية - ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م - التصدير ص (هـ) .

وهذا الديوان يحتوي على قصائد ومقطعات عدد أبياتها ستون وثلاثمائة وخمسة آلاف بيت تقريباً، القصائد التي يزيد عدد أبياتها على خمسة عشر بيتاً عددها تسعون قصيدة والقصائد التي عدد أبياتها أقل من خمسة عشر بيتاً وأكثر من ثمانية عددها اثنتا عشرة ومائة قصيدة، والمقطعات التي عدد أبياتها أقل من ثمانية أبيات عددها سبع وخمسون وثلاثمائة مقطعة.

وبالنظر في هذا الشعر ودراسته وجدته يحتوي على روائع تعكس ما كانت عليه القاهرة في ذلك الوقت من حضارة ورقي وتقدم، تتمثل في بلاط الفاطميين الذين منحوه الترف البالغ الذي يليق بخلافتهم الواسعة التي امتدت حتى لامست العراق، وطبعوه أيضاً بطابعهم المذهبي الخاص؛ بحيث إن مصر لم تعرف منذ عهد الفراعنة والبطالمة بلاطاً يتميز بجدته وبذخه كالبلاط الفاطمي. فكان يوجد داخل حوائط القاهرة نفس المنظر الذي كان في أغلب بلاط ملوك المسلمين: أبهاء واسعة وقاعات للجلوس، ودهاليز وقصران شاهقان؛ أحدهما كبير والآخر صغير ودور خاصة بالخلفاء وحريمهم، وعدة أبنية لخزن كنوز الخلفاء، وما يحتاج إليه القصر، سواءٌ أكانت خزائن، أم أهراء (١) ، أو اسطبلات ملكية.(٢)

وتتمثل هذه الحضارة في الرياض التي اهتم بها الفاطميون؛ ليلجأ إليها الناس للمتعة واللهو، والهروب من همومهم إليها ليجدوا الراحة النفسية وليتنفسوا من عبيرها عبق الحياة والحب. فأصبح خروج المصريين إلى الرياض أمراً مألوفاً يمثل حبهم للحياة وإقبالهم عليها، كما كان كلفهم بالخروج إليها يعكس نضوج ذوقهم وترف حياتهم.(٣)

وفي شعر تميم بن المعز مظاهر حضارية أخرى نحاول من خلال هذا البحث إبرازها ؛ لأنها تعكس ما كانت عليه القاهرة في عصره من حضارة وازدهار، وتعكس أيضاً مدى ما وصلت إليه الحياة المصرية من ترف وغنىً وبذخ.

---

(١)الأهراء : الأشوان التى تجمع فيها الغلال ذخيرة بالقاهرة .

(٢)نظم الفاطميين ورسومهم في مصر جـ٢ د/ عبد المنعم ماجد مكتبة الأنجلو سنة ١٩٧٨م ص ١٠٩

(٣)شعر الضيعة في الأدب المصري عوض علي الغباري الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٩م ص ١١

فالقاهرة عندما دخلها تميم في موكب والده كانت على قدر كبير من الجمال والفتنة، فالنيل بواديه الأخضر وضياعه وبساتينه، وكثرة الأعياد والمغاني بين نيروز وغطاس ووفاء النيل وغير ذلك من مظاهر الحضارة والأبهة الذي جعل القاهرة في ذلك الوقت جنة الدنيا.

هذه المفاتن أعجبت شاعرنا واتفقت مع مزاجه لأنه كان يميل إلى اللهو والترف، فهو في الخامسة والعشرين من عمره - عندما دخل القاهرة - أنضر ما يكون شباباً وجاهاً فراغاً من أعباء الملك. وجد في القاهرة من المتنزهات والديارات ما وافق هواه ومزاجه.

ولم يعمر طويلاً بل عاش حياة قصيرة، حيث توفي سنة ٣٧٥ هـ، ولم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره، ودفن في تربة الزعفران - خان الخليلي الآن - مع آبائه وأجداده.[1]

---

[1] الديوان ص (ف).

مظاهر حضارة القاهرة

القصور:

لقد قام المعز لدين الله في مصر بأعمال عمرانية كثيرة، تدل على ازدهار الفن في عصره. وعلى الرغم من أن جوهراً هو الذي قام بتأسيس مدينة القاهرة وبناء قصر الخليفة؛ فإن ذلك كان بوحي من هذا الخليفة، فهو الذي أمره بتأسيس القاهرة لتكون حاضرة لخلافته، كما أمره ببناء قصر يتخذه مقراً له إذا جاء إلى مصر، ومساجد يقيم فيها الفاطميون شعائرهم الدينية.

وكان القصر المعزي من الفخامة، بحيث اعتقد بعضٌ أنه فاق لابيرانت، أو قصر التيه، الذي اتخذه أمنحتب الثالث (١٨٠١ ق.م.)، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة مقراً لحكمه بالفيوم، والذي بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف. على أن شهرة هذا القصر قد تضاءلت أمام شهرة قصر المعز، الذي بلغ عدد حجراته، على ما ذكره ميجون(١)، أربعة آلاف.(٢)

لقد شاهد شاعرنا هذا القصر وعاش فيه وتمتع بجماله لدرجة أنه تخيل القصر إنساناً يتحدث عن نفسه مفتخراً بجماله وبهائه وضيائه، حتى أن الصبح بإشراقه لا يضاهي إشراق هذا القصر فيحسده، وأن ضوء الشمس والأفلاك والنور كله مقتبس من ضياء هذا القصر، كما أن الحدائق والرياض بأزهارها ورياحينها تحيط به من كل جانب فتنشر عليه عبق أريجها، وتضفي عليه رونقاً وجمالاً فمن يحل بهذا القصر يعش عيشة صافية مبتهجة ومن يره من بعيد يسر ويسعد. يقول تميم على لسان القصر:

إن يحسُد الصبحُ إشراقي فمعذرة ... بي تُشرِق الشمسُ والأفلاك والنورُ
أطاعني الحسنُ وانحطّ الجمال علي ... تَمكّني وأسعد بنياني المقادير
فساحتي بابن هادي الخلق مشرقةٌ ... ومنزلي بالعُلا والمجدِ معمور

(1)Migeon: L'Art Musulman, Tomei. p. 42.

(٢)المعز لدين الله الفاطمي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر - تأليف ضه أحمد شرف - ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧م. مكتبة النهضة المصرية ص ٢١٢ - ٢١٨.

كأنني بُرْجُ سعدٍ ما يفارقه ... خَفْضٌ وطِيب تقديس وتطهير
يضاحك النيلُ أركاني مغازلةً ... إذا بدت للصَبَا فيه قواريرُ
ولا تزال تلاقيني بنفحتها ... من كلّ وجه رياضٌ أو أزاهير
ولستُ بالقَفْر والبيداءُ محدِقة ... ولا عليَّ غبارُ التُرْب منثور
مَنْ حَلّني فَهْو صافي العيشِ مُبتهِج ... ومن رآني قريرُ العين مسرور(١)

ولقد حذا من جاء من الخلفاء بعد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي حذوه في بناء القصور، فالخليفة العزيز لدين الله بنى قصراً عندما شاهده شاعرنا تميم عده معجزة من المعجزات لم يبن مثله كسرى ولا قيصر .يقول تميم ارتجالاً في هذا القصر:

نجومُ سعودك لا تَفْتُرُ ... وآياتُ فضلك لا تُنْكَرُ
وفي كلّ ما أنت فَعّالُه ... لك المعجزاتُ التي تَبْهَر
فمجدُك ما فوقه مَصْعَدٌ ... وقَصْرُك ما بعده منظَر
مَنازلُ لم يَبْنِ مِثلاً لها ... على الأرض كِسْرَى ولا قَيْصَر
بناء تردّدَ فيه الجَمَالُ ... ولاح عليه السَّنا الأنْوَر
فظاهرُه العزّ مستظهَرٌ ... وباطنه التِبْرُ والجوهرُ
ولو سَحَرَتْ أَرْبُعٌ قبلَه ... لكان البديعَ الذي يَسْحَر
فَهُنِّئْتَه وتملّأْتَه ... وذَلّ لك الدهرُ والأعصُر(٢)

ومن مظاهر الحضارة أيضاً الفوارات المقامة في حدائق هذه القصور وساحاتها تبرد الهواء وتزيد المكان رونقاً وجمالاً، ولقد تفنن شاعرنا في عرض صورة الفوارة التي يتدفق منها الماء فيشبه الشَّعْر الأسود الكثيف، كما أنه يشبه عند خروجه مندفعاً إلى أعلا السيوف اللامعة البراقة وعندما تعود هذه المياه منكسرة إلى أسفل تشبه الهودج. وقد استعادت

(١)الديوان ص ١٧١.
(٢)الديوان ص ١٩٢،١٩٣.

هذه الفوارة مياهها من دموع عيون العاشقين صافية رقراقة تشبه عند بروزها - من عين الفوارة - قضيب الفضة اللامع .

يقول:

وقاذفةٍ بالماء في وَسْطِ بِركةٍ ... قد التحفتْ وَحفًا من الشَّعْرِ سَجْسَجا
إذا قذفَت بالماء سلّته مُنْصَلاً ... وعاد عليها ذلك النَّصْلُ هَوْدَجا
كأنّ عيون العاشقين تُعِيرُها ... من الدّمع سَجْلا صافيًا لا مُضَرَّجا
تخالُ بروزَ الماءِ من جَفْنِ عينها ... قضيبَ لُجَيْنٍ سُلَّ منه مُدَمْلَجا
تُحاولُ إدراكَ النّجوم بقَذْفِه ... كأنّ لها قلباً على الأفْقِ مُخْرَجا

هذه الفوارة وسط روضة خضراء يانعة مليئة بالزهور التي ينتشر منها نسيم يشبه المسك وهي روضة متميزة عن جميع الرياض لتوفر الماء بها فكثر فيها الأقحوان بورده الأبيض الذي يشبه الزمرد، والنسرين وهو ورد أبيض عطري قوي الرائحة. يقول:

لدى روضةٍ جاد السَّحابُ ربوعَها ... وزَخْرفَها دون الرياض ودَبَّجا
كأنّ غصون الأقحوان زُمُرُّدٌ ... تَعمَّم بالكافور ثم تَتَوَّجا
ونَوّار نَسْرينٍ كأنّ نسيمَه ... من المسك في أُفْقِ السماء تأرّجا(١)

وهذه المظاهر الحضارية رققت ذوق شاعرنا حتى أنه عندما شاهد مياه الفوارة وهي تتدفق بيضاء رقراقة تخيلها دموعاً منهمرة منها مشاركة لمن يبكي على هجر محبوبته له يقول. مرتجلاً:

شهدتْ عليه بقلّة الصبرِ ... وعظيمِ ما يَلْقَى من الهجرِ
فوارةٌ حسدتْ مدامعَه ... وهمولَها فجرَتْ كما تَجري
لكن بدت بمدامعَ يَقَقٍ ... وبكيتُ قبلُ بأدمُعٍ حُمْرِ (٢)

وكان لشاعرنا قصر يسميه "المعشوق" وصفه وصفاً جميلاً رقيقاً يناديه داعياً لرُبّاه أن تكون دائماً مكسوة بالزهور مشرقة على الدوام، فالمعشوق له عاشق واحد وأنت كل

(١)الديوان : ص ٨٨-٨٩ .
(٢)الديوان ص ٢١٦.

الناس لك عاشقة، فالحسن والإشراق والضياء واللمعان مصبوب على ثرى أرضك، والعيون كلها مفتونة بجمالك والقلوب جميعها مشتاقة لك، لما بك من نرجس ونسرين وآس ونيلوفر تخدمه في السقي ناعورة مياهها متدفقة لا تنقطع ... إلخ. يقول:

يأيُّها المعشوقُ لا فارقتْ ... رُبَاكَ أنوارٌ وإشراقُ
فكلُّ معشوقٍ له عاشقٌ ... والناسُ طُرًّا لك عُشّاقُ
كأنّما الحسنُ بلألائه ... عَلَى ثَرَى أرضك مُهْراق
وكلُّ عَيْنٍ بكَ مَفْتونةٌ ... وكُلُّ قلب لك مُشْتاقُ
إذا رنا نرجسُك المشتهى ... بأعين فيهن إطراق
كأنّما فاجَأَها كاشح ... بكل ما تكره سبّاق
فابيضّ منها لمفاجاته ... مُحاجرٌ واصفرّ أحداق
وابتسم النّسرين من حولها ... فهو صقيل الثغر برّاق
واستيأس الآس من المُلْتَقَى ... فَهْوَ من الرِعدة خفّاق
مختلف الأغصان في مَيْسه ... إذا انثنى ساقٌ علا ساق
يحفّه نَيْلوفَرٌ سابح ... في الماء لا يُرْدِيه إغراق
كأنما زُرّت على روسه ... من دَحَن الكِبريت أطراق
تخدمه في السَّقْي ناعورةٌ ... مَرْهاء لا يَرْقا لها ماق
ونَاعم الخضرة قد أُلْبِسَتْ ... منه حِداق العين أوراق
كأنما جَمْشَه عاشق ... أو نالَه للدهر إرهاق
وأخجل الوردَ بكاءُ النّدى ... فاحمرّ والحمرةُ تُشْتاق
كُلُّكَ يا معشوقُ مما غدا ... إليه كُلُّ اللّحظ تَوّاقْ
كأنما زَوّق ما فيك من ... بدائع الأنوار زَوّاق
ساويتَ بين الزّهْرِ في نَبْته ... كأنّما لحظك وَرّاق(١)

(١) الديوان ص ٢٩٤، ٢٩٥ [مرهاء: من مرهت عينيه ثمره مرها إذا خلت من الكحل أو فسدت لزكمه، أو ابيضت حماليقها للملك. ورقأ الدمع والدم: سكن وانقطع ـ وماق العين وموقها: طرفها مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع من العين ـ جمشه: غازله ولاعبه وداعبه بقرص ولعب ـ أرهقه: أتعبه وكلفه حمل ما لا يطاق ـ توّاق: شديد الشوق ـ زوقه: زينه وحسنه.

وانتشر في حدائق هذا القصر "النيلوفر" وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه، فيقول واصفاً هذا النيلوفر متعجباً من اصفرار لونه سائلاً قصره "المعشوق" من صفر بالهجران نيلوفرك؟ فيقول مجيباً: غيرني الحب كما غيرك، فصفرة وجهي هي ترجمان هذا الحب فعشقي للشمس هو الذي غير لوني كما أنني أنبت في مياه البرك.

يقول:

يأيها المعشوقُ بالله مَن ... صَفَّر بالهجران نَيلوفَرَك
فقال واسترجع في قوله ... غَيّرني الحبُّ كما غَيّرك
لم يَتْرُكْ لي عشقُ شمسِ الضّحى ... لَوْناً ولو تَارَكْتُه ما تَرَكْ
صُفْرةُ وجهي ترجمانُ الهوى ... فِيَّ ونَبْتِي في حَوابي البِرَك (١)

مما سبق يتضح لنا ما كانت عليه القاهرة الفاطمية في ذلك الوقت من حضارة ورقي تمثل في قصورها التي وصفها لنا تميم بن المعز بلغة حضارية جديدة أعلنتها ألفاظه الرقيقة العذبة، والذي يؤيد ذلك فقرات لأحد كتاب الفرنج ترسم صورة صادقة لقصر الخلافة، مع أن هذا الوصف جاء بعد قرنين من وصف تميم لها.

وهذا الكاتب هو (وليم الصورى) الذي صاحب سفارة الملك الصليبي (مرى) إلى الخليفة العاضد ووزيره شاور في سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) ذكر "وليم الصورى" أن هذه القصور كانت فخيمة، وبهاأروقة مرصوفة رصفاً ثميناً، ومسقوفة بزخارف ذهبية بديعة، تحيط بها بوائك على أعمدة قدت من رخام فاخر متعدد الألوان.

وروى الكاتب "أن المرء كان يقف مدهوشاً عندما يسير في أنحاء القصر، وكان يحار عجباً أينما حال نظره في أرجائه. وكان بالقصر نافورة يجري الماء فيها رائقاً صافياً، ويصل إليها في أنابيب من الذهب والفضة. وكان السفراء يتنقلون في القصور من ممر إلى ممر، ومن قاعة إلى قاعة، ومن فناء إلى فناء، ومن حديقة إلى حديقة، وهم يشاهدون في كل خطوة يخطونها أكثر مما شاهدوا عجباً وأبدع جمالاً. حتى وصلوا إلى القصر الكبير،

(١)الديوان ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

قصر الخلافة، وفاق ما رأوا في هذا القصر كل ما شاهدوه من قبل. وتطلعوا في قاعة من قاعاته إلى ستارة كبيرة حيكت من خيوط الذهب والحرير وطرزت برسوم الحيوان والطيور والإنسان، ورصعت بفصوص من الياقوت والزمرد والجواهر الكريمة.(١)

الكتابة على الطرز(٢)

صناعة النسيج قد كان لها في العصر الفاطمي شأن عالمي وأنتجت مصانع النسيج و "دور الطرز" و"الديباج" أنواعاً فاخرة من الأقمشة والمنسوجات. وكانت تصنع للخلفاء أصناف منها نفيسة غالية، تنسج عليها أسماؤهم بخيوط من الذهب وتكتب عليها بالخيوط الملونة تعبيرات لتمجيدهم ورفع ذكراهم. كما كانت تصنع للخلفاء في دور الطراز أقمشة أخرى زاهية فاخرة لخلعها على الأمراء والوزراء وكبار أصحاب الوظائف.(٣)

وإن كانت هذه الصناعة لوناً من ألوان حضارة القاهرة في ذلك العصر فإن الكتابة عليها بخيوط الذهب الملونة تدل على الحياة المترفة والثرية وكذلك روح الفن والجمال الذي ازدهر بمصر الفاطمية وسجله شاعرنا تميم في شعره.

فقد أمر تميم أن يكتب على طرة (٤) جارية وعصابتها:

طمع الورد أن ينافس خدّي ... طمع الغصن أن يقاس بقدّي
أنا إنسيّة ولكنّ حسني ... حُسْن حُورِيّةٍ بجنّة خُلْد
لو تأمّلتني العيون لأجْرَي ... لحظُها رقّة مع الماء جلْدي
صاغني الله واصطفاني لمّا ... صاغني فَرْدة الجَمَال لِفَرد(٥)

---

(١)مساجد القاهرة ومدارسها د/ أحمد فكري جـ ١ العصر الفاطمي دار المعارف سنة ١٩٦٥م ص ٨،٧.

(٢)الطرز: ما ينسج من الثياب للسلطان.

(٣)مساجد القاهرة ومدارسها جـ ١ العصر الفاطمي ص ١٤.

(٤)الطرة: ما تتزين به المرأة من الشعر المرفي على جبهتها بالقص والتصفيف، وهي القصة.

(٥)الديوان: ص ١٢٤.

وأمر أن يكتب على عصابة جارية:

ألبسني حُسْنك - يا حُسْنه -! ... ما لم يَخَلْ وهمٌ ولا ظنُّ
أُعطيتُ ما لم تَرَه مُقْلَةٌ ... مِنك وما لم تَسمع الأُذْنُ
أقلُّ ما خُوِّلتُه أنني ... يَعبُد وجهي الإنسُ والجنُّ
لو حملتْني مُقْلةٌ لم يكن ... يَأْثَمُ مَنْ حَمْلي لها حَفْنُ(١)

وأمر أن يكتب على عصابة جارية وطرتها:

قُلْ لمن تاهَ بالجما ... لِ ومَنْ دلَّ بالكمالْ
لا تَتِيهوا ولم تَرَوْ ... نِي فإنّي بلا مِثالْ
قد قَضَتْ لي بأنّها ... أمتي الشمسُ والهِلالْ
والإمامُ العزيزُ فيّ ... مَقولٌ بهذا المقالْ(٢)

وأمر أن يكتب على طرة جارية وعصابتها:

أنا من نور جوهر الأنوارِ ... خضعت لي في الحسن شمس النهار
ليس للشمس مثلُ خدّي وقدّي ... وظُبَا مُقْلَتَيّ والاحورار
من جمالي شُقّ الجمال وصِيغ ... من لوجهي بواهرُ الأقمار
صاغني ذو العُلَا وحيدةَ حسنٍ ... لوحيد الدنيا العزيز نزار(٣)

وأمر أن يكتب على طراز شقة(٤) :

سيدتي أحسنُ من قد مشى ... كذا أنا أحسن ما يُلْبَس
كأنني من رقّتي عاشق ... ليس يُرَى شُفْعا ولا يُلْمَس (٥)

(١)الديوان ص ٤٣٥.
(٢)الديوان ص ٣٤٣.
(٣)الديوان ص ٢٣٨.
(٤)الشقة: السيبة (القطعة) من الثياب مستطيلة وهي في الأصل نصف ثوب، ثم سمي الثوب كما هو شقة.
(٥)الديوان: ص ٢٤٤.

وأمر أن يكتب على شقة حمراء:

رِقَّتي فوق رقّة الأبشارِ ... عَقْدُ سحر لأعين النُظّارِ
من رآني رأى لهيبا وماء ... وعجيبٌ لقاءُ ماءٍ ونار(١)

وأمر أن يكتب على طراز شقة:

ثيابُ الدُّمَى البيضِ الحسان كثيرةٌ ... ولكنّني منهنّ أبهى وأجمل
أُجَرُّ عَلَى بيضِ الجباه وأَتَّقِي ... على الطُّرَرِ المستحسَناتِ وأُسْبَلُ
وأَكْتُمُ مُحْمَرَّ الخدودِ بإذْنِها ... وأُلْوَى على اللَّبّات طَوْرًا وأُحمل
ولَمْ تَجْفُنِي مُذْ كُنْتُ يوما مَليحةٌ ... ولم تُرَ عَنِّي ذاتُ حُسْنٍ تَنَقَّلُ(٢)

وأمر أن يكتب على طراز شقة:

خُلِقْتُ لأعلو وجنةَ المهَا ... وأستر لينَ خدودِ الدمى
فلم تَرَ قَبْلي عيونُ الورى ... على الغانيات ضُحًى مُعلَما(٣)

من الأمثلة السابقة يتضح لنا جانباً من حضارة القاهرة المتمثل في تدليل المرأة وتكريمها هذا التكريم الذي أثار اهتمام دارسي تاريخها منذ القدم، ومكانة المرأة الاجتماعية في العصر الفاطمي تتضح من رواية المقريزي بأن الملك المعز أمر ألا تخرج المرأة من بيتها ولا يمشي رجل بلا سراويل.(٤) فهي عند تميم جميلة جمال حوريات الجنة يطمع الورد أن ينافس حمرة خدها والغصن يطمع أن يقاس بقدها فهي بلا مثال كما تخضع لها في الحسن

(١)الديوان: ص ٢٣٨.
(٢)الديوان ص ٣٢٢.
(٣)الديوان ص ٣٩٩.
(٤)السلوك، لمعرفة دول الملوك، المقريزي، تحقيق د: مصطفى زيادة، ١٩٥٧م حـ١ ص ٣٩٧.
وقال أبو الحسن الجزار في ذلك:

شمس النهار ومن جمالها شق الجمال فقد صاغها الله وحيدة في جمالها، كما أنها عنده أحسن من قد مشى،ورقتها فوق رقة الأبشار ... الخ.

مظاهر الجمال هذه قد أمر شاعرنا تميم أن تسجل وتكتب على الطرز وعصابات النساء وطراز الشقة بخيوط الذهب الملونة، كما هو واضح في النماذج السابقة، أما البسط والستائر- وهي من مظاهر الحضارة في ذلك العصر حيث يوجد بمصر الستور التي هي أحسن ستور الأرض والبسط وأجلة الدواب والبراقع وستور النسوان في المضارب والأكسية والأطالسة، وكان يعمل بأخميم الفرش التي تسمى نطوع الخز(١) . فقد وضعت الستائر المطرزة على النوافذ ؛ لتصون أبشار خدود الفتيات التى تشبه الدمى وتمنع نظرات الغاوين ، ولا خير فى بيت بلا ستر ، سجل شاعرنا كل ذلك وأمر أن يكتب على طرز الستائر نماذج من شعره:

فقد أمر أن يكتب في بساط ريحان:

إذا هبّ عِطْرِيّ النَّسيم على عَمْد ... بنشر الأقاحي والبَنَفْسَج والورد
فأهلاً بما فاحت به نفحةُ الصَّبا ... وأهلاً بما أهدت إلى الشوق من بَرْد
رياضٌ تناهى الماءُ في حسن رَقْمها ... فجاء بها مثلَ العِذار على الخدّ
فحُثّا كُؤُوسَ الراح فيها فإنّني ... أرى الصحوَ مما لا يُفيد ولا يُجْدي(٢)

فأمر أن يكتب على طراز ستارة:

أصونُ أبشارَ خدود الدُّمَى ... وأمنع الغاوي من النظرهْ
وظاهري في العين مستحسَن ... واسمِيَ مشتق من السزهْ (٣)

(١)حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة السيوطي حـ ٢ ص ٣٢٧.
(٢)الديوان ص ١١١ الشخصية المصرية ص ٢٣٠.
(٣)الديوان ص ١٩١.

وأمر أن يكتب على طراز ستر:

لو فُرِش المجلس بالدُّرّ ... نَضْدا وبالياقوت والتِّبْرِ
ما كان عن حسنيَ مستغنيا ... لا خير في بيت بلا سِتْرِ(١)

وأمر أن يكتب على طراز ستر:

أنا أظرف الحجّاب شخصا وموقعا ... وأكتمهُم سِراً على المتكلِّم
وإن هَمَّ محبوبٌ بوصلِ حبيبه ... وقيتُهما من كل واشٍ ومُبْرِمِ(٢)

تقدير الهدايا:

الهدية هي ما يقدم من التحف والألطاف للمجاملة، وهي مظهر حضاري اتباعه ينشر المحبة والوئام بين الناس، وتدل قيمة هذه الهدية على ذوق وحضارة صاحبها وعلى قدر ومقام المهدي إليه، وليست بغلو ثمنها ولكنها تكون رمزاً لما بين المتهاديين من صفاء وود وطاعة وحسن علاقة وشكر على نعمة. وشاعرنا قد سجل ذلك في شعره.

فقد بعث بشمامة[٤] من الزهر إلى الخليفة العزيز بالله ثم قال:

يا أيها المليك الميمونُ طائره ... ومن بِغُرّته قد أخجل القمرا
إني بعثت إليك الزهر ناعمة ... تُرضِي من الندماء الشمَّ والنظرا
شمامة حسُنت مَرْأًى ومختبَرا ... كأنها نَشْرُ محبوبٍ إذا خطرا
ولست أهدي على قدر الإمام ولو ... طلبتُ ذلك رُمْت الزُّور والأَشَرا
لكنني رُحتُ أُهديها صفاءَ هوى ... وقد أطاعك مَن أعطاك ما قدرا(٣)

---

(١)الديوان ص ١٩٥.

(٢)الديوان ص ٣٩٦.

(٤) الشمامة: كل ما يشم من الأرواح الطيبة.

(٣)الديوان ص ٢٣٨.

وكان الأمير تميم يوماً في بستان بولاق، فأرسل إلى عمه حيدرة تفاحاً وليموناً ووروداً وأترجّا وغيره من الزهر، وسأله إيصاله إلى الخليفة العزيز بالله. وكتب إليه معه هذا:

يا عمّ لا زلتَ في النعماء محبورا ... سامي المحلّ قريرَ العين مسرورا
أبلغ فديتُك مولانا وسيّدَنا ... ومن غدا آمرا والدهرُ مأمورا
وقل له ظَفِرَتْ كفّاك واعترضَتْ ... لك السعودُ ولا لاقيتَ تكديرا
يا خيرَ مستخلَف ما زال منذ بدا ... من البريّة ممدوحاً ومشكورا
إن الخلافةَ مذ أُلبِستَ حُلّتها ... عَزَّت ولم تَلْقَ من مَسْعاك تقصيرا
تأويلَ ما أنا مُهديه ومُرسلُه ... ودّي وشكريَ منظوما ومنثورا
إذ كلّ ما رحتْ مهديه فمنك يدا ... وإن أَعَدْنا ترديدا وتكريرا
بعثتُ شِبّهَ النهود البارزات وما ... تحكي خدودَ الدمى حسنا وتحميرا
من كلّ تفاحة زهراءَ مُذْهَبة ... كأنها حشيت مسكا وكافورا
كأنهنّ خدود قُدّ لثمن فقد ... أبقى اللثام بها نقشا وتأثيرا
وكلّ ليمونة تحكي بظاهرها ... لونَ المحبّ إذا ما بات مهجورا
فاسْلَمْ سَلِمْتَ على الأيام مرتفعاً ... تزينُها، وعلى الأعداء منصورا(١)

وكان شاعرنا يقبل الهدية ويشكر صاحبها على ما قدم، ويستهدي من الآخرين ويهدي لهم، فقد أنفذ أبو إسماعيل الرسي (٢) إلى الأمير تميم كلتين من لاذ (٣)، ووافق وصولهما [وركوبه] عجلته لمباكرة الصيد، فقال ارتجالا وكتب بها إليه ولم ينتظر حتى يرجع من رحلة صيده، وقدم اعتذاره بأن كتب هذه الأبيات على عجل.

(١) الديوان ص ٢٠٨.

(٢) أبو إسماعيل إبراهيم ابن أحمد (والد أبي عبد الله الحسين المتقدم) كان نقيب الأشراف بمصر في أيام العزيز، وتوفي بها سنة ٣٦٥، وولي نقابة الأشراف بعده ولداه الحسين وعلي (تاج العروس).

(٣) اللاذ، جمع لاذة: وهو ثوب حرير أحمر كان ينسج بالصين.

كَلَّلْتَ وُدَّك لي بالبِرِّ والنَّفَلِ ... لما بَعَثْتَ بما أَهْوَى من الكِلَلِ
وكنتَ تنزِل من قلبي بمنزِلةٍ ... مَصونةٍ ما لها في القلب من مَثَلِ
فقد غَدا لك قلبي اليومَ أجمعُه ... يُصفيك وُدّا مقيما غيرَ مُنتَقِلِ
وما أُكافيك إلّا عن هَوىً رَسَخَتْ ... أصولُه فيك لم يُنقُصْ ولم يحلِ
فأنت نِعمَ الوليُّ المُستعانُ به ... وخيرُ من وَلَدت حَوَّاءُ من رجلِ
لا زال قلبيَ مشتاقا إليك كما ... يشتاق قلبُ الهوى لِلأَعيُنِ النُّجُلِ
خُذْها وعُذْريَ في التقصير أنّيَ قد ... كتبْتُها وأنا فيها على عَجَلِ(١)

وكتب تميم إلى بعض الأصحاب يستهدي باشقا : (٢)

قد عَزَمْنا على التصيّد والتَّنْـ ... ـهَةِ ، والصَّيْدُ في التَّنَزُّه فَضْلُ
فيه ضَرْبٌ من السياسة والعَزْـ ... ـمِ وفيه لِلحَزْمِ عَقْدٌ وحَلُّ
ولَدَيْنا من الجَوارح للطَّيْـ ... ـرِ ضُروبٌ فهنّ للطير قَتْلُ
ولَدَيْك البواشِقُ اللاءِ قَدْ رُحْـ ... ـنَ كما رُحْتَ ما لِفَضلِك مِثْلُ
فَتَفَضَّلْ بباشِقٍ كُلُّ ما فيـ ... ـهِ جَناحٌ ومِخْلَبٌ فيهِ نَصْلُ
طالَما طاردَ السُّمانَى وأَضحَى ... دَمُها وهْوَ تحتَ رِجلَيهِ نَعْلُ
وافِرِ الدَّسْتِ مُرْهَفِ الرِّيشِ لولا ... صَدْرُه لم يكن له مِنه ثِقْلُ
واقتراحي لـه عليكَ لِعلمي ... أنني مخلِصٌ لديك مُدِلُّ(٣)

---

(١) الديوان: ص ٣٥٣.

(٢) الباشق: طائر حسن الصورة، وهو أصغر الجوارح جثة، يصطاد العصافير (محيط المحيط).

(٣) الديوان ص : ٣٣٥ . (أدل عليه فهو مدل : إذا وثق بمحبه وبمنزلته عنده ومكانته لديه) .

وكتب إليه بعض أصحابه (يستهدى منه نبيذا)

هجرتُ شُرْبَ الراح فى فتية ... ما منهمُ من يهجر الخمرا
فقال منهم قائل : هَجْرُها ... فى هَجْرِها لايَبْسُطُ العُذْرا(١)
وخمرنا بعدُ فما استكملت ... فى دَنّها معصورةً شهرا
وليس عُمْرُ الخَمْر ما لم يَحُلْ ... حَوْلٌ عليها عندنا عُمْراً
وقد أتى النَّوْرُوزُ مستجهلاً ... مَن لم يَجِدْه ميّتا سُكْراً
ولستُ فى استهدائها مخطئا ... كَلّا ولا مرتكبا نُكْرا
فَعُذْتُ من قصدِ فريد العُلا ... بمَعقِلٍ لا زال لى ذُخرا
مولًى حَبانى بعضَ إنعامه ... عندى وحسبى قَصْدُه فخرا
فجاء حسنُ الظنّ من قبل ما ... أمّلتُه يؤذِن بالبشرى
وسار نظمُ الشِّعْر فى إثْرِه ... مقدِّما قبل الندَى شكرا
يا حبّذا شكرى وظنّى بمن ... أرجو لردّ العسر لى يسرا(٢)

فأجابه الأمير تميم :

وا يأبى من حَسّن الظنَّ فى ... قصدى ومن أسلفنى شكرا
ومن دعانى للمهمّ الذى ... أخلص لى الإسرار والجهرا
ولا ومَن أسأله راجيا ... منه العُلا والعزّ والنصرا
ما جاء فى شِعرك مُسْتَفهِما ... وقدرتى مالكةٌ خمرا
إلا التى استخلصتُها وهْىَ لم ... يَبْلُغْ مَدَى العمرِ لها شهرا
فليتنى رحتُ بلا مُهْجةٍ ... ولم أقدِّم فى الورى عذرا
أو ليتنى مُلّكتُ عمرى لكى ... أُعطِىَ منه سائلى الشَّطْرا

(١) يريد أن هجرها أى فحشها وما يقع بين الندماء فى مجلسها لا يكون عذرا فى هجرها وتركها فالهجر الأول الفحش والثانى الترك

(٢) الديوان ص ١٩٨

لكننـــى أحبـــوك إذْ لم أجِـــد ... مـــن صِرْفهـــا مـــا جـــاوز العمـــرا
صفـــراءَ كـــالوَرْس عقيقيَّـــة ... صافيـــه عـــا تقـــه بِكْـــرا
يُزِفُّهـــا نحـــوك مَـــنْ يرتضـــى ... مثلـــك كُفْـــؤًا فـــارتقب عَشـــرا
لازلـــتَ يـــا مـــالكُ لى ســـالما ... لعـــلّ ســـقمى بـــك أن يَـــبْرَا(١)

وقال وقد استهدى بعض حاشيته منه خمرا :

بَعَثْتُهـــامن صِـــرْف راحٍ قَرْقَـــف ... كأنهـــا ياقوتَـــةٌ فـــى شَـــنَفِ(٣)
أو أَرَجٌ (٢)فى قَـدَحٍ مُسْـتَطْرف ... يَحْلِـفُ مَـنْ يَشـربها بـالمصحف
بأنها لو لم تَفُح لم تُعْرفِ (٤)

الأعياد والمواسم :

وهى من مظاهر حضارة القاهرة فى عصر شاعرنا تميم ، تتسع فيها أحوال الرعية وتكثر نعم الخلفاء والأمراء والأغنياء على شعوبهم وذويهم وأقربائهم ، فيأكلون ويشربون وينعمون ويقضون فى هذه الأعياد من اللهو والنزهة حظهم ، فينسون همومهم، ويتجدد نشاطهم ،ثم يعودون إلى أعمالهم بجد ونشاط .

وكان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة أعياد ومواسم هى [موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ،و مولد الحسن،و مولد الحسين عليهما السلام ومولد فاطمة

(١) الديوان : ص ١٩٩ .
(٢)الأرج : نفحة الريح الطيبة ونضوع رائحة الطيب وتوهجها والمراد فى البيت الطيب نفسه
(٣) القرقف : الخمر ، سميت بذلك لأنها تقرقف شاربها أى ترعده لإمادته إياها ، والشنف.: القرط (الحلق) يعلق فى أعلى الأذان ، وحرك الشاعر نونه للضرورة .
(٤) الديوان ٢٧٧

الزهراء عليها السلام ، ومولد الخليفة الحاضر ،و ليلة أول رجب ، و ليلة نصفه ، و ليلة أول شعبان و ليلة نصفه ، و موسم ليلةرمضان ، و ليلة الختم ، و موسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس العدس ، وأيام الركوبات(١)

وقد سجل تميم بن المعز هذه المواسم والأعياد فى شعر رقيق هذبت لغته الحضارة الراقيه التى وسمت هذا المجتمع فجاءت صُوره مشرقة مبتكرة .

*– الاحتفال بشهر رمضان

إذا أقبل شهر رمضان تبادل الناس الزيارات وأخذ الشعراء يزفون التهنئة إلى كبار الشخصيات فى الدولة ، كما تخرج المكاتبات من دار الخلافة المصرية واصفة الاحتفال برؤية هلال رمضان وثبوت رؤيته ، وتهنئ المسلمين بصوم الشهر . ومن ذلك ما كتبه " ابن الصيرفى " :

" الحمد لله كالىء خلقه فى اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذى بعثه رحمة للأنام ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، أخلص ولى ، وأشرف وصى وأفضل إمام ، وعلى الأئمة من ذريتها الداعين إلى دار السلام ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة فى الغدر والآصال " وإن من المسرة التى تتهادى والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر وافتتاحه ، وإن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة فى عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ، والمنة برؤيته

(١)الخطط المقريزى جـ ٢ صـ ٢٧٤

قد تساوى فيها الكافة ، وملائكة الله مطيفة حافة ، وعودة إلى قصوره الزاهرة وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتى الدنيا والآخرة (١)

وقال تميم يهنئ الخليفة العزيز بالله بشهر رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة :

لئن كان شهر الصَّوْمِ أفضلَ حولِهِ ... لَفَضْلُك فى أبناء جنسك أفضل
وإن تك فيه ليلة القدر إنها ... لَفِيكَ معانيها التى تُتَأول (٢)
وحسبُك أنّ الصائمين له إذا ... طَوَوْا عنك فِيه النصح لم يُتَقَبَّلوا
فهُنِّيتَه شهراً وعُمِّرت مِثلَه ... ثمانين حولا تُرْتَجَى وتُؤَمَّل
أنارت بك الأيام حتى كأنها ... دُجًى أنت صبح فى أعاليه مقبِل
فللمجدِ منك السعى فرض وللهدى ... وللجود حتم ما تقول وتفعل
ولو لم نجد فيك المديح منظما ... لأغناك عن ذاك القُران المنزَّل
وصلّى عليك الله يا خَيْرَ خلقِهِ ... وَمَنْ هُو هَدْيٌ لِلأنامِ وموئِلِ (٣)

وقال يمدح الخليفة العزيز بالله ويهنئه بشهر الصيام :

شهرُ الصِّيامِ أجلُّ شَهْرٍ مُقْبِلِ ... وبه يُمَحَّصُ كُلُّ ذَنْبٍ مُثْقِلِ
وكذاكَ أنت أبَرُّ من وَطِئَ الحَصا ... وأجلُّ أبناءِ النَّبِيّ المرسَلِ
يا حُجَّةَ الرحمانِ عند عباده ... وشِهابَهُ فى كلِّ أمرٍ مُشْكِلِ
من لم يكن فى صَوْمِهِ مُتَقَرِّبا ... بك للإلهِ فَصَوْمُه لم يُقْبَلِ
فسلِمتَ للإسلامِ تَحْمِى شَرْعَهُ ... بالمَشْرَفِيِّ والرِّماحِ الذُّبَّلِ
يا من بفَضْلِ زمانِه وطِباعِه ... شهِدتْ براهينُ الكتابِ المنزَلِ
لولاك لم يَصْفُ الزمان ولم تَنَلْ ... فيه أفانِينُ النعيمِ المُكْمَلِ

---

(١) صبح الأعشى جـ ٨ صـ ٣١٦ .

(٢) من عقائد الفاطميين أن ليلة القدر تؤول على إمام الزمان ، لأن الإمام عندهم يجمع كل الفضائل التى قيلت عن ليلة القدر

(٣) الديوان ص ٣١٥

فجزاكَ عَنّا اللهُ أفْضَلَ ما جَزَى ... مَلِكًا وخَصَّكَ بالبقاءِ الأَطْوَلِ
وأذَلَّ مَن عاداك ذِلّةَ راغِمٍ ... ورماه بالحَدَثِ المهِمِّ المُعْضِلِ
وكذاك من أضْحَى يُكَدِّر نِعمةً ... لك عِندنا لا زالَ أسْفَلَ أسْفلِ
ما زلتَ فينا مُنْعِمًا مُتَفَضِّلاً ... أبشِرْ بنَصْرِ المنعِمِ المتفضِّلِ
كُحِلت عُيونٌ حُسَّدٌ لَكَ بالقَذَى ... كي لا تَرَى وفُقِئْنَ إن لم تُكْحَلِ
وعليكَ صلّى اللهُ يا بنَ نَبِيِّهِ ... وأجَلَّ مَجْدَكَ فوقَ أرْفَعِ منزِلِ(١)

وقال يهنئ الخليفة العزيز بالله بشهر رمضان :

لِيَهْنِكَ أنّ الصومَ فرضٌ مؤكَّدٌ ... من الله مفروضٌ على كلّ مسلِمِ
وأنّكَ مفروضُ المحبّةِ مِثلُه ... علينا بحقٍّ قلتُ لا بالتّرهم
فَهُنِّئْتَه يا مَنْ به الله قابِلٌ ... من الخَلْقِ فيه كلَّ نُسْكٍ مقدَّمِ
ولا زلتَ منصورًا على فَرْضِ صَوْمِه ... ومعتصِمًا بالله من كلّ مَحْرَمِ
فأنتَ نصَرتَ العدلَ ثم نشرتَه ... وجُزْتَ بَذْلَ العُرْفِ حَدَّ التكرّمِ
ولستَ براضٍ بذلكَ الجُودَ أوّلا ... إذا لم تُعِدْه ثانيا وتتمِّمِ
إلى أن رأيتَ الجودَ فَدّاكَ ناطقا ... ونادتْ بك العَلْياء وهي بلا فَمِ
وصلّى عليكَ اللهُ يا من تجاوزَتْ ... بدولَتِه الأيّام عن كلّ مُعدِمِ(٢)

(١)الديوان ص ٣٤٤ . [الرغم : الكره والهوان والذل ـ القذى : ما يقع فى العين وما ترمى به من تراب ونحوه]
(٢) الديوان ص ٣٨١ ـ ٣٨٢

*- الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى :

ومن أعياد مصر الرسمية عيد الفطر وعيد الأضحى ، وكان الخليفة يخرج فى موكب رسمى لأداء الصلاة ، ويبعث بالتهانى . إلى سائر الأقطار . ومن ذلك ما كتبه ابن الصيرفى فى بعض هذه المناسبات .

" وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا :وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها ، وأوجب فيه رغبة ورهبة - مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها ، وذلك أن عساكر أميرالمؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجارء الفجر ، وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر ، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة ، وأعدت الإخلاص فى خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأذمه، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعه طوالعه ، ومهابته تمتع كل طرف سن استقصاء تأمله وتدافعه وقصد المصلى فى كتائب لجبى ، ومواكب للتعظيم مستوجبة ، وعزة تتبين فى الشمائل والصفحات وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات (١) وشارك تميم فى هذه التهانى حيث قال يمدح الخليفة العزيز بالله ويهنئه بعيد الأضحى :

ولمّا رأيتُ النّاسَ سَنُّوا التّهانيَا ... بعثتُ بـه منّى إليكَ القوافيَا
إذا هُنِّئَ الأَمْلاكُ بالعِيدِ لَمْ نَقُلْ ... غَدا لك هذا الدهرُ بالسّعد هانيا
ولكن نهنّى عِيدَنا بك والورى ... كما بِك هَنّانا النَّدَى والمَعاليا
فلو لم تكن فى الأرض كانت بِلا سَنًا ... وأشبَهَتِ الأيّامُ فيها اللّياليا
إذا ما امرؤ سامَى بِجَدٍّ ووالِدٍ ... سَمَوْتَ بأخلاقٍ جَمَعْنَ المَعاليا
ولو لم تكن مِن معشرٍ فيهم الهُدَى ... لكنتَ هُدًى للناس وحدَكَ باقيا
كأنّك ماءُ الغَيْثِ يستَنْبِت الرُّبَا ... وَيكْسُو الثَّرَى حُسْنا ويُرْوِى الصَّواديا(٢)

(١) صبح الأعشى جـ ٨ (٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥)

(٢) الديوان ص ٤٦١ [الصوادى : جمع صاد ، وهو شديد العطش]

وقال يهنئ الخليفة العزيز بالعيد ويمدحه :

هَنـاكَ قُـدومُ العيـدِ يـاعيدَ أهلِـه ... ومَـن هُـوَ عيـدٌ للبريّـة دائـم
بدالـك فيـه السعدُ من كـلّ جـانب ... وهـا بَتْـك فيـه عُرْبُـه والأعـاجمُ
فَجُـودُك سَـجْلٌ للمُطيعـين وابـلٌ ... وَسَيْفُك فى العاصين قاضٍ وحـاكمُ
إذا نـاكِثٌ بـالغَدْر عاصـاكَ لم تَطِـرْ ... خَـوا فِـى جَناحَيْـه بـه والقـوادمُ
وإن رامَ غَـدْرا أظهـرَ اللهُ سِـرَّه ... عليـه وأبدى كـلَّ مـا هـو كـاتمُ
لأنّك سيفُ الحقّ والله ضـــاربٌ ... به ونِظامُ الدِّين والله ناظـمُ(١)

وقال يهنئ الخليفة العزيز بالله بعيد الفطر ويمدحه :

فـانْعَمْ بعيـدٍ تركـتَ المسـلمينَ بـه ... سِلْمًا وغادرتَ أهلَ الكفرِ فى جَدَلِ
نصـرتَ مِلّـةَ جَدّيـك اللـذَيْ سـلَفا ... حتى غدتْ بك تَسْتَعْلِى على المِلَلِ
لئـن أتـى العِيـد مِـن لُقْيـاكَ فـى فَـرَجٍ ... لقد مَضَى الصومُ من مَنآك فى ثَكَلِ
بـرزتَ فيـه بـروزَ الشـمسِ طالعـةً ... وقـد أعـاد الضّحـاءَ النَّقْـعُ كـالطَّفَلِ
والبيـضُ تَزْهَـرُ والأعـلامُ خافقـةٌ ... والأرضُ فى رَهَج والجَوُّ فـى زَجَـلِ
فليـس يَصْـرِف لحـظَ العـين مُرْسِـلُه ... إلّا إلى سـابِحٍ فـى الأرضِ أو بطـلِ
والشمسُ فوق مَدارِ الجيشِ قد حُجِبتْ ... فـى جَوّهـا بمُتـون البِيـضِ والأسَـلِ
حتى بلغتَ المُصَلّـى خاشـعًا نَسِـكا ... خشـوعَ جَـدِّك نـى أزمانـه الأوَلِ
فقمتَ فيهـم خطيبـا مِصْقعًـا لَسِـنًا ... بكـلِّ مُنْفَصِـلٍ نَـثْرًا ومُتَّصِـلِ
فـأىُّ قلـبٍ جليـدٍ لَم يـرِقّ لهـمْ ... وأىُّ موعِظـةٍ غَـرّاءَ لَم تُقَـلِ
بلاغَـةٌ نبـوِىُّ النّظـمِ مُحْكَمُهـا ... وخُطْبَـةٌ لم يَنَلْهـا مُهْمَـلُ الخَطَـلِ
أبَنْـتَ بـالحقِّ مـا قـد كـان مُشْـتَبِها ... من الهُدَى فَتَجَلّى كُـلُّ مُشْـتَكِلِ
برهـانُ صِـدْقٍ شَـفَيتَ الأولِيـاءَ بِـه ... وسُـقْتَه بـين رَيْـثِ القَـول والعَجَـلِ
نـالوا بمـا سِمعـوا الزُّلفَـى فمـا افْـتَرَقُوا ... إلا وهُـمْ من رِضا الرّحمانِ فـى جُمَـلِ
صلّـوا وراءَك و الأمَـلاكُ خلفَهُـمُ ... مُبلِغـين لأعلَـى السُّـؤْلِ والأمَـلِ
و خَصّ اللهُ مـا كـانوا قـد اقْـترفوا ... حتى تَبرّوا من الآثام والزّلَـلِ(٢)

---

(١) الديوان ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ [السجل : الدلو العظيمة فيها ماء]

(٢) الديوان ص ٣٤١ـ ٣٤٢ [الطفل :إقبال الليل على النهار بظلمته ، وذلك حين تصفر الشمس وتدنوا للغروب ـ الرهج : الغبار ـ الزجل : الجلبة ـ زهر يزهر : أشرق وتلألأوأضاء ـ البيض : السيوف

وقد يمدح الخليفة العزيز ويهنئه بعيد الفطر :

هَنَاكَ عِيدٌ لَكَ تَمَّتْ لَهُ ... فِينَا مَعَانِى لَفْظِهِ وَاسْتَنَارْ
جَمَّلْتَهُ عِزًّا وَحُسْنًا كَمَا ... جَمَّلْتِ الشَّمْسُ رِدَاءَ النَّهَارْ
بَرَزْتَ فِيهِ كَبُرُوزِ الضُّحَى ... يَجْتَمِعُ الهَيْئَةَ بَادِى الوَقَارْ
وَأَنْتَ مِنْ جُودِكَ فِى وَابِلٍ ... سَحٍّ وَمِنْ لُبْسِ التُّقَى فِى شِعَارْ
تَبْتَسِمُ الدُّنْيَا إِلَى مَاجِدٍ ... مِنْكَ حُسَيْنِىٌّ كَرِيمُ النِّجَارْ(١)

*ـ عيد النوروز :

ومن أعياد مصر الوطنية عيد النوروز ، وقد ظل العيد بين المصريين منذ أخذوه عن الفرس حتى كانت الدولة الفاطمية ، وفى عصرها تفنن المصريون بالمباهج والمرح بكثرة أعيادهم وتشجيع الخلفاء لهم ومشاركتهم فى كل هذه الأعياد (٢)

قال إبراهيم بن الرفيق فى تاريخه : حدثنى محمد الكهينى وكان أديبا فاضلا قد سافر ورأى بلدان المشرق ـ قال : ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف (٣) والعزف وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلى خرج إلى بركة الحبش متنزها ، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك والمحررات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون .

فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفون ، فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان فى بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة . ويركب الأمير تميم فى

---

(١) الديوان : ص٢١٩

(٢)الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى د/ أحمد سيد محمد ص ٢٤٩

(٣) القصف اللهو واللعب والأفتتان فى الطعام والشراب

عشارى (١) ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاما ومشروبا ، فإن كانت الليالى مقمرة ، وإلا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم ، فيأمر لهم ، ويأمر لمن يغنى لهم،وينتقل منهم إلى غيره .بمثل هذا الفعل عامة،ليلة ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التى على هذه البركة، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ويتفرق الناس(٢).

هذه الأعياد مظهر من مظاهر الحضارة فى العصر الفاطمى صورها الأدب مهرجانا للمرح واللعب وتناول الأطعمة واقتراف الملزات وقد شارك المسلمون المسيحيين فى أعيادهم دون أن يجدوا غضاضة فى مشاركتهم ، كما نظر كل منهم إلى بعض الأعياد الموروثة كوفاء النيل أو النوروز على أنها أعياد مشتركة بينهما (٣)وهذا مظهر حضارى.

وقال تميم فى أول يوم ركب فيه الخليفة المعز لدين الله بمصر إلى بستان كافور ، وكان يوم النوروز للقبط:

لو كان للنوروز لما أتى ... فمٌ ولفظٌ معربٌ أو لسانْ
ناداك : أنت العيد ياعيدَ من ... عيّد والنوروز والمهرجان
لوجَلَّ عن قدْرِ العيانِ امرؤٌ ... للفضلِ ما نالك منّا العيان
أوتيتَ فى المهدِ العُلا والندَى ... وخصّك اللهُ بحسْنِ البيانْ
فما عسى يُحصِيه فيك الثنا ... أنتَ عالِى القَدْرِ عن كلّ رشان
ياحُسنَ ما أصبَح يسمو به ... يا صفوة الرّحمانِ مِنك الحَنان
قد سافرتْ فيك بمَدْحِى الورى ... وغرّدتْ فيك بشِعرِى القِيانْ
وسالمتْنِي منذ نوّهْت بى ... سودُ الرّزايا وخُطوبُ الزمان
لا زلتَ تبقَى قاهِرا لِلعِدا ... بالغَ ما أمّلتَ عالِى المكان (٤)

---

(١)العشاريات : ضرب من المراكب البحرية كان يركبها الفاطميون مزخرفة يوم فتح الخليج .
(٢)الخطط جـ ٢ ص ٥٦٧ ، ٥٦٨
(٣) الشخصية المصرية د/ أحمد السيد ص ٢١٥
(٤)الديوان ص ٤٢٢ - ٤٢٣

وقال يهنئ الخليفة العزيز بالله بالنوروز :

لِيهنِـــك يـــامِلءَعينِ الزّمـــانِ ... دوامُ السّـــرورِ ونيـــلُ الأمـــانى
وأنّـــك أنـــت الإمـــامُ الّـــذى ... أبـان لـــه الفضـــلَ نـــصُّ القُـــران
فيـــا مُلبِســـى النِعَـــمَ الســـابغات ... وموجِـــبَ حقّـــى ومُعلِـــى مكـــانى
ملكـــتَ ثنـــائى ببـــذلِ الجميـــل ... ووصـــلِ الأيـــادِى وقـــربِ التّدانـــى
فـــأصبحتُ عنـــك حَسِـــيرَ(١)الجفـــون ... إذا رمـــتُ شـــكرا كَلِيـــلَ اللّســـانِ
فـــرُحْ عالمـــا أنّنـــى شـــاكرٌ ... ســـليمُ السّـــريرةِ صـــافِى الجَـــانِ
ذكرتُـــكَ مـــا بـــين كـــرِّ الكـــؤوس ... وقـــد أقبَـــلَ اللّهـــوُ مُرْخَـــى العِنـــانِ
وقـــد جـــاوَبَ الزِّيـــرُ(٢)فى جَذْبِـــه ... مـــع البَـــمِّ(٣)ترجيـــعَ صـــوتِ المثـــانى
وجـــاوَبَ قُمْرِيّـــةٌ فـــاخِتٌ ... وعالتْهمـــا نَغَمـــاتُ القِيـــانِ
ونحـــن نقسّـــم وَسْـــطَ الكـــؤوس ... نُضـــارا لـــه حَبَـــبٌ كالجُمـــانِ
ولمّـــا تبـــدّت مَراجِيحُنـــا ... تحرّكهـــا بـــالغَوالِى (٤)الغَوانـــبى
ونحـــن مـــن المـــاءِ فى وابـــلٍ ... مَشُـــوبٍ بخمـــرٍ ومِســـكٍ وبـــانِ
فمِـــن مُعْمِـــلٍ رَشّ زَرّافـــةٍ(٥) ... ومـــن قـــاذِفٍ بسُـــلاف القِنـــانِ(٦)
وقـــد مَـــدّ فـــى النِّيـــلِ بـــدرُ الدُّجَـــى ... صحيفـــةَ سَـــيْفٍ صَقِيـــلٍ يَمَـــانِ
فـــلا زلـــتَ تَبقَـــى لقَهْـــرِ العِـــدا ... وتملِـــك مـــا بقِـــىَ الفَرْقَـــدانِ
فـــأنت الـــذى بـــك نلنـــا المنـــى ... على كـــلّ حـــالٍ وفـــى كـــل شـــانِ(٧)

---

(١)حسر البصر يحسر حسورا : كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك ، فهو حسير ومحسور .

(٢) الزير : الدقيق من أوتار العود ، أو أحدها وأحكمها فتلاً .

(٣)البم : أحد أوتار العود ، أو أحدها وأحكمها فتلا .

(٤)الغوالى : جمع غالية ، وهى نوع من الطيب الجيد يغلى على النار مؤلف من مسك وعنبر ودهن وبان .

(٥)الزافة : المنزفة التى ينزف بها الماء للزرع وما أشة ذلك .

(٦) القنان : جمع قنينة ، وهو إناء من الزجاج للشراب .

(٧) الديوان : ص ٤٢٥ - ٤٢٧ .

البساتين والرياض والزهور :-

وهى من مظاهر حضارة القاهرة الفاطمية ، والذى ساعد على وجودها ، الماء الوفير ، والتربة الخصبة ، فانتشرت الخضرة فى كل مكان يصل إليه الماء ، وكثرت الحدائق الباهرة ، والبساتين المزهرة ، التى تدهش الناظر ، وتشرح الخاطر ، وعندما تأتى الأعياد يخرج الناس إلى هذه البساتين عليهم ثياب جميلة ، ومعهم أولادهم وجواريهم وقيانهم ينعمون ويمرحون فى أمن وأمان .

وكانت القاهرة فى ذلك الزمان من أجمل البلاد موقعا وأرقاها حضارة فالبساتين والرياض تحيط بها من كل ناحية " لأنه لما استقر ملك الفاطميين أحدثوا فى ضواحيها الأربع من المبانى الفاخرة والمناظر البهيجة والبساتين النضرة ، ما زاد فى بهجتها ورونقها، وبقيت كذلك إلى أن دالت الأيام بدولتهم ، فتغيرت أحوالها .... " (١)

وقد صور لنا تميم مشاهد تلك الرياض بما فيها من ثمار وفيرة وأزهار متنوعة ومختلفة فى أشكالها وألوانها ، وجاءت صوره مبتكرة حيث ربط بين مظاهر الطبيعة ومظاهر الترف والغنى ، كما أنه اتخذ مواد الحضارة المادية أدوات لتصوير مظاهر الطبيعة من رياض وزهور وثمار فبساط الأرض الخضراء وما فيها من زهور تشبه العقيق وهو من الأحجار الكريمة ، وشقائق النعمان تشبه الحلل الملونة التى اكتست بها الربا ، وثمار الموز صورها مراود من عسجد مملوءة من سكر . ....الخ (٢)

---

(١)الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة تأليف / على باشا مبارك الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨ جـ ١ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) عشب حولى من الفصيلة الشقيقية أحمر الزهر مبقع بنقط سود .

يقول تميم فى وصف روض :

أنظر لتفويف(١)الرياض و حسنها ... قد نَمَّقَتْهُ يَدُ السَّحاب الممطِر
بُسُطٌ تُخَالفَ صبغُها و نسيجُها ... ما بين أصفرَ كالعقيقِ وأخضر
يَجْمَعْن حُسْنَ المنظَر الزاهى الذى ... راقَ العيونَ إلى كريم المخبر
فكأنّ نرجسها عيونٌ أبرزت ... أجفانها لكنها لم تنظر
وشقائق كست الرُّبا من نسجها ... حُلَلا كتضْريج الخدود الأحمر
مُتبرّجات ناعمات أكملت ... خَفَر الذليل ونخوة المتكبر
و غلائل زُرْق نثرن كأنها ... آثار تَجْميش الصدور النُضَّر
ما بين مَوز قد بدا كمراودٍ ... من عَسْجَد مملوءة من سُكّر
فاشربْ على تلك الرياضِ ونشرِها ... راحا تُريح فؤادَ كُلَّ مفكّر (٢)

ويقول واصفا روضة بأن الندى فوق أغصانها كأنه در نثير ، وإذا مرت عليها ريح الصبا انتشر عبيرها فى الجو لكثرة ما فيها من زهور ، فالبنفسج [ثم المحب حوته خدود الدمى والنحور] ، والنرجس عيون لحظها ساكن ، والأقحوان يشبه الثغور ...الخ

أما تُبْصِر الروضَ كيف اغتدى ... وأولُه مونِقٌ والأخير
كأنّ النّدَى فوقَ أغصانه ... إذا أسفرَ الصُّبْحُ دُرٌّ نثير
وإن خطرتْ فيه رِيحُ الصَّبا ... تنفّس فى الجوّ منه عَبير
كأنّ البنفسَج ثمّ المحبّ ... حوته خدودُ الدُّمَى والنُحُور
ونرجسه أعينٌ لُحْظُها(٣) ... سواكِن والأقحوانُ الثغور

(١)يقال برد مفوف : أى رقيق موشى .

(٢)الديوان :ص ٢١١ .

(٣)اللحظ : واحده لحاظ ، بفتح اللام ، وهو مؤخر العين مما يلى الصدغ .

ومن باقِلاَء (١) كُبلْق الحمام ... تميس ولكنها لا تطير
وإذا ما تداعت فواختُيها (٢) ... بدا للطياهيج (٣) فيها صفيرُ
وإذا هبَّت الريح فى سَرْوها ... تعانقن ضمَّ الصدورِ الصدورُ
كما اهتزَّ فى المشى غِيدٌ (وعِينٌ) ... فما دت روادِفُها والخُصُور (٤)

وقال يصف روضة:

وَرَوْضَةٍ أُنُفٍ (٥) حاد الغمام لها ... بدمعِه فكساها حُلَّةَ التَّرَفِ
يُحُفُّهَا باقِلاءٌ نَبْتُهَا خَضِلٌ ... شهِيَّةُ المُجْتَنَى مَعْشُوقة الهيفِ (٦)
تحكى قدودَ العذارَى البيضِ جاذبها ... أردافُها فانثنت من شدةِ الصلَفِ
باكرْتُهَا بنَدَامَى كلّهُم فَهِمٌ ... تراضَعوا دِرَّةَ الآدابِ والطُّرَفِ
كأنّ ألفاظَهم ما بينهم تُحَفٌ ... غريبةُ الحسن أو أحلى من التحف (٧)

وكانت البساتين والرياض أماكن للهو والمتعة، تحرك فيها الأوتار ويرتفع الزمر- يقول تميم:

قد اجتمع البستان والروض والخمرُ ... وحُرِّكتِ الأوتارُ وارتفع الزَّمْرُ
فما لك لا تغدو إلى الراح غَدْوة ... يبيحك فيها كلّ ما تشتهى السكر
هل العيش إلا قينةٌ ومدامة ... وساقٍ مليح ليس يُعصَى له أمر (٨)

---

(١)الباقلاء : الفول .

(٢)الفواخيت : جمع فاختة وهى ذوات الأطواق من الحمام ، إذا مشى توسع فى مشيه وباعد بين جناحيه وإبطه وتمايل .

(٣)الطياهيج : جمع طيهوج . وهو ذكر القطا أو الحجل .

(٤)الديوان : ص ٢١٣ .

(٥) روضة أنف : لم ترع - وكلأ أنف : إذا كان بحاله لم يوطأ و لم يرعه أحد؟

(٦)الهيف فى الأصل : ضمور البطن ورقة الخاصرة .

(٧)الديوان : ص ٢٧٧ .

(٨)الديوان : ص ١٦٣ .

وقال ارتجالا وكان جالسا على نهر في روضة:

إن خريرَ الماءِ بين الرياضْ ... ولينَ ألحاظِ العيونِ المِراض
نُزْهةٌ من قد رَقّ تأديبُه ... فردْ على نهلةِ تلك الحِياضْ
والثم على الراحِ خدودَ الدُّمَى ... حتّى تراها زُرْقةً في بياضْ(١)

وقال يصف الكرم وحمله، مشبها حبات عناقيده، التى تراصفت متناسقه، مضموم بعضها إلى بعض بألوانها المشربة بالحمرة أو الزرقة أو الصفرة كالياقوت، ومنها أيضا الأخضر الذى يشبه الزمرد (٢) المنظوم.....إلخ.

سَقّياني على العناقيد ممّا ... عَصَرَتْه الأكُفّ منها قديماً
ما ترى الكرمَ كيف نَضّدَ ياقو ... تا وأبدَى زُمّرّدا منظوما
يتبدّى للعَينِ حَبّاً ويُخفِي ... عَسَلاً في ظُروفه مختوماً
كنَواص القِيانِ نَظْماً وكالشّهْ ... دِ مَذاقاً وكالعَبِيرِ نسيماً
غلِطوا حين سمّوا الكَرْمَ كَرْماً ... لو أصابوا القياسَ قالوا تكريماً
فاسقني يانديمُ واشرب بكأسي ... واقسم اللّهوَ بيننا والنعيما
لاشربتُ المدامَ إن لم أعظّم ... فوق نفسي على المُدام النّديما (٣)

ومن مظاهر حضارة القاهرة فى ذلك الوقت حدائق الزهور المختلفة التى اجتمع فيها بمصر – فى وقت واحد من السنة – ما لايجتمع بمدينة (البنفسج والورد والسوسن والنيلوفر والريحان(٤) .

ومن مظاهر حضارة القاهرة فى ذلك الوقت التهادى بأنواع الزهور المختلفة، وقد سجل شاعرنا ذلك فى شعر رقيق عندما أهدى صاحبه نيلوفر(٥) وكتب إليه قائلاً:

---

(١)الديوان : ص ٢٥٦ .

(٢)الزمرد : حجر كريم أخضر اللون ، شديد الخضرة ، شفاف وأشده خضرة أجوده وأصفاه جوهراً .

(٣)الديوان : ص ٣٨٦ .

(٤)حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ج٢ ص ٣٢٥ .

(٥)النيلوفر : نبات مائى له أصلى كالجزر ، وساق ملساء ، تطول بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر زهراً أزرق .

بعثت إليك بنيلوفرٍ ... يفوق مدى صفة البارع
بأحمرَ قانٍ وذى زُرقةٍ ... وأصفرَ فى لونه فاقع
تأنّقتِ الأرضُ فى نَبْتِهِ ... تأنُّقَ مقتدِرٍ صانع
فجاء كبردِ ثُغُور المَهَا ... وفاح كعنبرها الرادع(١)
وطاب كطِيبك يوم النّدى ... ولفظِك فى أذُن السامع (٢)

وبعث إلى بعض الأصحاب بنيلوفر أصفر ، وكتب إليه :

بَعَثْتُهُ يحكيكَ فى بعضِ ما ... أَلبَسَكَ الشوقُ لرؤيانا
لكنّه يُهدِى بأرْواحِه ... إليك مَغْدانا ومُمْسانا
نَبِّئْ أيا نِيلُوفَرَ النَّبْتِ عَنْ ... وُدّى بتضويعِكَ (٣)إنساناً
وقل له لاصلَحتْ حالةٌ ... تَنْهاكَ عن أن تتلقّانا
ما جَمّلَ الأيّامَ خَلْقٌ كما ... جَمّلْتَها جُمِّلْتَ وإحسانا
لو طُوِىَ الجُود إذَا أصبحتْ ... لِطيِّهِ كفُّك عُنْوانا
كأنّما أنتَ رأيتَ النّدى ... والناسُ أمْستوا عنه عُمْيانا

قَفَوْتَ(٤)فى المعروف أخلاقَنا ... وسُمْتَ(٥)فى هَدْيك مَهدانا
لاكان مَن فرّق ما بيننا ... فى جملة الأحياءِ لاكانا (٦)

---

(١)رادع : من ردع الزعفران على الجلد إذا نقص صبغه عليه ، ويقال قميص رادع ومردوع إذا كان فيه أثر طيب أو زعفران .
(٢)الديوان : ص ٢٦٧ .
(٣) ضاع المسك يضوع : تحرك فانتشرت رائحته ونفحت .
(٤)قفاه يقفوه : تبعه .
(٥)سامه يسومه : لزمه ولم يبرح عنه .
(٦)الديوان : ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

وقال وقد وجه يوما إلى الخليفة العزيز بالله وردا وبنفسجا ومعهما رقعة :

بك أستزين إذا فخرت فأسبق ... وبنظم مدحك فى البرية أنطق
يامن بدولته وصحة عدله ... أمسى حديدا ذا الزمان المخلق
إنى بعثت بنفسجا نمت به ... ريح كريح المسك ظلت تفتق(١)
ونبات ورد كالخدود إذا بدت ... وعقيق ماء الحسن فيه يشرق
وكأن ذا ياقوت عقد أحمر ... وكأن ذا ياقوت عقد أزرق
فانعم هنيئا إن سعدك طالع ... فينا وملكك كل يوم مورق(٢)

وقد وصف " تميم " النيلوفر قائلا :

شهدت للنيلوفر الغض ... بالعدل فى جملة ما يقضى
يفتح عند الصبح أجفانه ... طرفا ولا يلوى على الغمض
لأن تحت الصبح نيل المنى ... وكل طيب حسن محض
حتى إذا الليل تبدى انزوى ... وغاص بالكل وبالبعض
كيلا يرى فى الليل لون القلى ... والصد والهجران والبغض(٣)

وقال يصف النيلوفر :

فضل الصبوح على الغبوق مبين ... يقضى بذاك شواهد النيلوفر
يبدو إذا انبسط النهار بأعين ... زرق وحمر كاختلاف الجوهر
ويغوص تحت الماء إن هم الدجى ... بورود خوف للرقيب المبصر
الصد أشبه بالظلام وسيفه ... والوصل أشبه بالنهار الأنور
فاشرب على صبحين : صبح مدامة ... وضحى وإصباح الخدود الأزهر(٤)

---

(١) تفتق : فتق المسك بغيره إذا استخرج رائحته بطيب يدخله عليه .
(٢) الديوان : ص ٢٩٢ .
(٣) الديوان ٢٥٦ .
(٤) الديوان : ص ١٧١ - ١٧٢ .

أما النرجس فهو من أشد الأزهار تعبيرا ، ويشبه بالعيون ، وبالثغور ، وبالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والدراهم والدنانير وهى صور مستمدة من أشياء ترتبط بالحضارة .

يقول فى وصف النرجس :

أذكرنى النرجسُ أجفانَ مَنْ ... غادرنى فى صُفرةِ النرجسِ
فلم أزل مُذ شمّ مبيضّه ... شوقا على طِيبِ حَتَى الأكؤسِ
حتى أشاب الصبحُ فرعَ الدجى ... ولم أنم عنه ولم ينعسِ
يا من حكى النرجس لى نَشْره ... ماذا تقلّدت من الأنفسِ
هبك لبست الصبح وجها فمن ... أين لبست الشَعْر كالحندسِ (١)
والله لازال عليك الهوى ... وَقْفا وإن كنت الظلومَ المُسِى (٢)

وقال فى الخمر والورد والنرجس :

وورد أعارته الغوانى خدودها ... وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَفْتوقِهْ
كأنّ الندى فيه مدامعُ عاشقٍ ... أُريقت غداةَ البينِ فى خدّ معشوقِهْ
يحف به من تَوْءم الروض نرجس ... تناهَى سنا مُبيَضّهِ فوق تَخْليقه
رأى الوردَ غضا فاستهامَ بحبّه ... وأطرقَ مبهوتا وقام على سوقِه (٣)

وقال يصف الورد ويتغزل :

وردُ الخدود أرقُّ مِنْ ... وَرْدِ الرّياض وأنعَمُ
هذا تَنَشّقُه الأنو ... فُ وذا يُقبّلُه الفَمُ
وإذا عَدَلْت فأفضلُ ال ... وَرْدَين وردٌ يُلثَمُ

(١) الحندس : الظلمة .
(٢) الديوان : ص ٢٤٩ .
(٣) الديوان : ص ٢٩٨ .

لاوردَ إلّا مـــــا تَـــــوَلّى صَبْـــغ حُمرتـــهِ الـــدَّمُ
هـــذا يُشَـــمُّ ولا يُضَـــــمّ وذا يُضَـــــمّ ويشـــمَمُ
ســبحان مــن خلــق الخُــدو دَ شَـــقائقاً تُتنسّـــمُ
وأعارَهـــا الأَصـــداغَ فهـــ ـــيَ بهـــا شـــقيقٌ مُعلَـــمُ(١)

*- السواقي والنواعير :

وهى مظهر من مظاهر حضارة القاهرة فى ذلك الوقت ؛ حيث استطاع أهل مصر الأذكياء أن يستفيدوا من مياه نيلهم الوفيرة ، لرى بساتينهم وحقولهم ورياضهم بأن صنعوا السواقى والنواعير وأقاموها على النيل وخلجانه لرفع المياه وسقاية الأرض .

شاهد تميم الساقية والماء يتدفق منها محدثاً فقاقيع ورذاذاً فتخيلها تبكى لحب أزاهيرها ، ودمعها يجرى مثل جرى دمع المحب وتخيل صوتها نواحاً ، وهى مقامة على روضة مزدانه بالزهور محمية بعيون حارس الكرم ..... الخ .

يقول تميم :

وســـاقيةٍ ترنّمـــى بالحَبَـــابِ وتبكـــى لحـــبّ أزاهِيرِهـــا
جـرى دمعهـا جـرىَ دمـع المحـبّ ونـاحت بصـوت نواعِيرِهـا
فأدمُعهـــا مَـــزّج أقداحِنـــا وريحاننـــا نَشْـــرُ كافورِها
لـــدى روضةٍ حَلْيُها نَـــوْرها حمتها عيـــونُ نواطِيرِها(٢)

(١) الديوان ص : ٣٨٦ .

(٢) النواطير : جمع ناطور : وهو حارس الكرم .

إذا شـــاقنا رَقْـــم أعلامِهـــا ... ســـبْتنا عيـــونُ يعاقيرهـــا(١)
تعيـــد أديـــمَ الضحـــى مُذْهبـــاً ... إذا قذفـــت بقواريرهـــا
وقـــوف النـــدى فـــوق محمرهـــا ... ونفـــخ الصَبَـــا فـــى مزاميرهـــا
أطعنـــا الصِبـــا فـــى مواخيرهـــا ... ونلنا المنـــى فـــى مقاصيرهـــا(٢)

أما الناعورة وهى دولاب ذو دلاء أو نحوها ، يدور بدفع الماء أو جر الماشية ليخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل ، فقد شاهدها شاعرنا وهى متحركة فأعجب بأنينها وطرب عند سماعه ، وتخيلها تبكى بكاء المحب الكئيب الحزين ، وهى تنطق بدون فم وتبكى بلا عيون ..... الخ .

يقول فى وصف الناعورة :

وناطقـــةٍ كلّمـــا حُرّكـــتْ ... وليستْ بناطقةٍ فى السكونِ
تئـــنّ إذا دارَ دُولابُهـــا ... فتُطـــرِبُ ســـامعَها بالأنينِ

وتَبكِـــى وليســـت بمحزونـــةٍ ... بكـــاءَ المحِـــبِّ الكئيـــبِ الحزيـــنِ
فتَنطِـــق بـــالصوتِ لامِـــن فـــمٍ ... وتَقـــذِف بـــالدَّمْعِ لامِـــن جفـــونِ
كـــأنّ لهـــا ميّتـــاً فـــى الـــثَّرَى ... فأدمعُهـــا هُمَّـــعٌ كـــلَّ حِـــينِ
إذا زَمَـــرَتْ أطربَـــتْ نفسَـــها ... فغنّـــت بمختلِفـــاتِ اللُّحـــونِ
غِنـــاءً يُرقّـــص كِيزانَهـــا ... ويُظهِـــر فِيهـــنّ وثـــبَ المُجـــونِ
فتَهـــوِى فَـــوارغَ فـــى بئرِهـــا ... وتصعَـــدُ مِنهـــا مِـــلاءَ العيـــونِ
كأنّ مَـــــدامِعَها فِضّـــــةٌ ... مـــذوّبةٌ لـــونُها أسْمَجُونِي(٣)

---

(١)اليعاقير : جمع يعفور ، وهو الظبى بلون التراب .
(٢)الديوان : ص ١٦٥ .
(٣)الديوان : ص ٤٢٤ .

وقال يصف ناعورة :

ناعورة أنّت أنينَ الهوى ... لمّا شكت حَرّ وساويسها
أنينها صَرّةُ تدويرها ... ودمعها ماء قوادِيسها
كأنما الكيزان في بِئرها ... هامُ ملوكٍ في نواويسها(١)
تقذف بالماء إلى روضةٍ ... كأنها ريش طواويسها
كأنما السَّرْوُ بها نِسْوة ... قامت إلى قرع نواقيسها
ويُحسب الخشخاشُ من حولها ... يداً أشارت بدبابيسها
وانفتح النرجس عن أعين ... مصفرّةِ الأحداقِ من بُوسها
وأُقحوانٍ كثغور المَهَى ... مفترّةٍ من بعد تعبيسها
وسَوْسَنٍ كالقَرْصِ لمّا بدت ... آثاره في لِينِ ملموسها
نبّهَهُ القَطْر بأندائه ... إذ نثرتْهُ السُّحْبُ من كِيسها
تلعب بالأبصار أنوارُها ... لِعْب الأماني بِمفاليسها
فرُحْ على رَيْحانها واستَرِح ... للرّاحِ في دَوْحة مأنوسها (٢)

وقال أيضا في وصف الناعورة :

وصامتةٍ ناطقةٌ ... بألفاظها شائقةْ
تئنّ بلا زفرةٍ ... ولاكبدٍ خافقه
كأنّ قواديسها ... لها أبدا وامقه (٣)
فأجْسامُها وُثّبٌ ... وأدمعها دافقةْ
تردّدُ من صوتها ... لُحونا لها رائقه
مُغنّيةٌ تارة ... وزامرةٌ حاذقه(٤)

---

(١) الناووس : القبر .
(٢) الديوان : ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
(٣) وامقة : محبة : أشد الحب .
(٤) الديوان : ص ٢٩٤ .

هكذا كانت القاهرة في عصر شاعرنا تميم بن المعز لدين الله الفاطمى، الذى استطاع من خلال شعره أن يصور لنا مظاهر حضارتها، المتمثل في قصورها الفخيمة التى تجعل من يراها يقف مدهوشاً لجمالها وبهائها، ويتعجب من إرتقاء أهل مصر في فن العمارة ومهارة عامل البناء المصرى؛ لما تحتاجه هذه القصور من تطور هندسى بالغ، وما تتطلبه من الزخرفة والنقوش، وما تتطعم به من الأحجار الكريمة والفسيفساء.

كما تتمثل هذه الحضارة في البساتين المحيطة بهذه القصور، والحدائق المقامة داخلها تتوسطها الفوارات التى تلطف جو هذه القصور بمياهها المتدفقة، فتزيدها رونقاً وجمالاً.

وسجل تميم في شعره مظهراً من مظاهر حضارة القاهرة في ذلك العصر وهو الكتابة على الطرز وعصابات النساء والستائر، وهذه الكتابة كانت بخيوط الذهب الملونة، وهذا يدل على الثراء والترف، وروح الفن والجمال، وما جاء في شعر تميم – الذى أمر أن يكتب على عصابات النساء والستائر– من ألفاظ وصور يدل على تدليله للمرأة والمحافظة على شخصيتها وكيانها وكذلك صونها بوضع الستائر المطرزة على النوافذ، لأنه كما يقول: لاخير في بيت بلا ستر.

ومن مظاهر حضارة القاهرة في ذلك العصر من خلال شعر تميم، تقديم الهدايا من الزهور وثمار الفاكهة وأثواب الحرير، وطيور الصيد والخمور، سجل تميم كل ذلك في شعر رقيق هذبت ألفاظه الحضارة الراقية التى عاشتها القاهرة في ذلك الزمان.

أما عن الأعياد والمواسم فكانت طوال السنة، لينعم بحلولها أفراد شعب القاهرة يأكلون ويشربون ويقضون فيها اللهو والمتعة والنزهة حظهم ويخرج الخلفاء في مواكب رسمية يتبادلون التهانى فيما بينهم، وقد سجل تميم هذه التهانى في شعره.

أما البساتين والرياض والزهور، والذى ساعد على انتشارها في القاهرة الماء الوفير والتربة الخصبة،فقد جعلت القاهرة في ذلك الزمان من أجمل البلاد وأرقاها حضارة.

وقد صور تميم مشاهد تلك الرياض والبساتين والزهور بصور مبتكرة، متخذاً مواد الحضارة المادية أدوات لتصوير مظاهر الطبيعة. كما أن أهل مصر الأذكياء استخدموا السواقى والنواعير لرى بساتينهم وحقولهم ورياضهم وقد وصف تميم هذه السواقى والنواعير في شعر مملوء بالعاطفة الرقيقة والذوق الحضارى.

وفى ديوان تميم مظاهر أخرى لحضارة القاهرة في عصره منها وصفه لرحلات الصيد والتنزه على صفحة النيل، ووصف أدوات الموسيقى المستعملة في مجالس السمر... وغير ذلك...

المصادر والمراجع

١ – حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ؛ لجلال الدين السيوطى القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٢–خسرو (ناصر و) ، "" سفرنامة "" ترجمة د / يحيى الخشاب – من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥ م .

٣–الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة – على مبارك باشا – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م .

٤–ديوان تميم بن المعز تحقيق / محمد حسن الأعظمى – مراجعة الأساتذة أحمد يوسف نجاتى – محمد على النجار – محمد كامل حسين – مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧ م .

٥– السلوك لمعرفة دول الملوك – المقريزى – تحقيق د. مصطفى زيادة ١٩٥٧ م .

٦–الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى د. أحمد سيد محمد – دارالمعارف ١٩٧٩ م .

٧–شعر الطبيعة ورسومهم فى مصر د. عبد المنعم ماجد – مكتبة الأنجلو ١٩٧٨ م.

٨–مساجد القاهرة ومدارسها – د . أحمد فكرى – العصر الفاطمى – دار المعارف ١٩٦٥ م .

٩–المعز لدين الله الفاطمى أمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر – طه أحمد شريف – مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٧ م.

١٠–نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر –د. عبد المنعم ماجد – مكتبة الإنجلو ١٩٧٨.